أفكار حول الأمة والوحدة والدولة

الفضل شلق

الأمة أولاً

في هذه المرحلة من القرن العشرين يشهد العالم اتجاهين قوميين متناقضين، الأول يدعو إلى حركات انفصالية تؤدي إلى قيام دول قومية على أنقاض امبراطوريات مثل الاتحاد السوفياتي، الهند، يوغسلافيا، الخ . . والثاني يدعو إلى قيام دول كبرى تتشكل من عدة دول قومية كما في أوروبا الغربية.

في الوطن العربي، يدعو الاتجاه الوحدوي إلى قيام دولة كبرى تكون في دولة قومية، أي دولة تتطابق مع الوجود القومي للعرب. يجمع هذا الاتحاد الوحدوي بين ملامح الاتجاهين العالميين لكنه يعاني من صعوبات جمة.

أولى هذه الصعوبات هي وجود الدول القطرية التي لا تتطابق مع الوجود القومي العربي والتي ترفض شعوبها الاعتراف بها وقبولها إلا مرغمة(*) في الوقت الذي يعترف بها القانون الدولي ويمتنع عن الاعتراف إلا بها، أو على الأقل يمتنع

(*) إن تطلع الجماهير العربية إلى تجاوز الكيانات العربية بوصفها أقطاراً تتناقض مع وحدة الأمة هو السبب الذي يؤدي إلى سلبيتها من أنظمة الحكم القائمة فيها سواء كانت ليبرالية أم ديكتاتورية، مما يدفع أنظمة الحكم هذه إلى كبح الجماهير من أجل تثبيت سلطتها وضمان ديمومتها. لذلك فالطابع غير الديمقراطي لأنظمة الحكم العربية لا يعود إلى أسباب تتعلق بالطبيعة العربية ولا بالثقافة الإسلامية. المسألة هنا تتعلق بوجود الأقطار العربية لا بأشكال الحكم فيها.

القانون الدولي عن الاعتراف بأي خطوة وحدوية إلا إذا كان أسلوب تحقيقها ينسجم مع القواعد المؤسسة على هذا النظام الدولي. بهذا المعنى لم تعد الوحدة العربية شأناً داخلياً يقرره العرب بأنفسهم بل هي شأن دولي يتطلب الاعتراف الدولي به كي يصبح حقيقة واقعية(*). لذلك استطاعت وحدة اليمنين أن تبقى وتترسخ بينما واجه ضم الكويت إلى العراق معارضة دولية أدّت إلى حرب اعتبرها الكثيرون بمثابة حرب عالمية ثالثة.

إن الأسلوب الذي يتعامل به التحالف الغربي مع العرب يؤكد أن لدى الغرب استعداداً دائماً، كي يتناسى العبر التي استفادها من حروبه السابقة مع ألمانيا القيصرية ثم الهتلرية. لقد تنبه الغرب إلى خطأ الممارسات تجاه ألمانيا بعد الحرب الأولى وطبق ممارسات مختلفة عليها بعد الحرب العالمية الثانية. والتصرف الثأري تجاه العراق الآن ينمّ لا عن ازدواجية في المقاييس وحسب، بل يعبر أيضاً عن عجز تام عن فهم رؤية العرب لأنفسهم ولسيرورتهم التاريخية وطموحاتهم المستقبلية.

يعتبر بعض الباحثين الغربيين، إضافة إلى بعض النخب العربية، أن المشكلة الأساسية التي يعاني منها العرب الآن، هي هيمنة التقليد، وعدم قدرة العرب على استيعاب التكنولوجيا الحديثة، وعدم قدرتهم على التقيد بأساليب وقوانين العصر. لذلك نرى معظم الدراسات المعاصرة حول الأوضاع العربية، حول العقل العربي، وحول الشخصية العربية، تدور حول مفهوم أساسي ينطلق من إشكالية الحداثة والتقليد. وبينما يعتبر بعض الباحثين هذه الإشكالية مسألة راهنة وعابرة، وبالإمكان حلها عندما تتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، يعتبر آخرون أنها مشكلة مزمنة تنبع من طبيعة العقل العربي، وكأنهم يريدون تذكيرنا أن العنصرية ما زالت حية وأن اتخذت أشكالاً أخرى.

(*) بهذا المعنى يمكن القول أن النظام الدولي عامل من جملة العوامل التي تقف حائلاً بين العرب وبين ممارستهم حق تقرير المصير.

إن الدراسات المعاصرة حول الأوضاع العربية تكرر نفسها، بشكل روتيني رتيب، حين تعتبر أن وجود الأقطار العربية أمراً مسلماً به، فتحاول تشخيص المشاكل وصياغة الحلول على أساس اعتبار أن هذه الأقطار قد وجدت لتبقى(*). وهي تعتبر أن كل سعي نحو توحيد الأمة هو سعي غير عقلاني وغير واقعي لأنه يرفض الاعتراف بالواقع الراهن(**).

المشكلة هي أن ما يعتبره الغرب أمراً مسلماً به لا يعتبره العرب كذلك. فالعرب يرون أن الأولوية يجب أن تعطى لمسألة وجودهم في دولة تتطابق مع كونهم أمة واحدة، أما الغرب فيعتبر أن تلك مسألة غير ذات أهمية وإن على العرب القبول بالأمر الواقع والانصياع لمتطلبات النظام الدولي الذي يرفض الاعتراف بهم إلا كدول قطرية وكيانات متعددة ذات سيادة.

هناك سؤالان يجب على كل مجتمع أن يجيب عليهما، الأول يتعلق بوجوده في دولة، هل يوجد أم لا، وهذا السؤال هو جوهر المسألة القومية(***)، والسؤال الثاني يتعلق بكيفية وجوده أي بأسلوب عمله السياسي والاجتماعي والاقتصادي، الخ.. والعرب يعتبرون أن حل المسألة الثانية غير ممكن دون الإجابة على السؤال الأول.

يعتبر الغرب أن السؤال الوجودي عند العرب، وهو السؤال الذي يتعلق بوجودهم كأمة وكدولة واحدة هو سؤال غير ذي بال، ولأنه لا يدرك أهمية الموضوع، فهو يتصرف تجاه العرب دون تحسس بالمسائل الأكثر حميمية لديهم، مما يقود إلى عدم تفاهم يضرب في أعماق العلاقة بينهما.

(*) ينهي حنا بطاطو كتابه القيم حول تاريخ العراق الحديث بالاستنتاج أن مشكلة العراق الأساسية في السبعينات هي تضخم القطاع العام وعدم القدرة على استيعاب واستخدام موارد النفط الضخمة.

(**) تكرر هذه الدراسات نفسها بشكل يدفعنا إلى تأكيد اقتناعنا بصحة مقولات إدوارد سعيد في كتابه حول الاستشراق وقصوره في فهم الثقافة العربية.

(***) أيد بعض العرب ضم الكويت إلى العراق والذين عارضوا ذلك منهم لم يعترضوا على المبدأ وإنما رفضوا الطريقة الفظة التي تم بها؛ أو أنهم اعتبروا أن هذا العمل سيجلب على العرب مصائب أكثر من الفائدة الجزئية التي يمكن أن يجنيها صدام حسين.

إن تعامل الغرب مع العراق بعد غزو الكويت تعاملاً مختلفاً عن التعامل مع إسرائيل التي تخرق القانون الدولي بشكل لا يقل فداحة عن العراق، والتي تحصل على أسلحة دمار كلّي بما يفوق ما كان يملكه العراق من هذه الأسلحة في أي من الأوقات، والتي ترفض تطبيق القانون الدولي والقبول بمراقبة صناعة أسلحة الدمار الكلّي فيها، كل ذلك يؤدي إلى تعميق الهوة بين العرب والغرب ويزيد العرب اقتناعاً بأن ازدواجية المقاييس لدى الغرب ما هي إلا نتيجة حتمية لعدم تحسس الغرب بقضايا العرب الأساسية إن لم نقل عدائه التاريخي لها.

مفهوم الوحدة

مهما قيل في أمر الدولة فإن العرب يرون في الوحدة مثلاً أعلى ويرون في الفتنة والتجزئة الشر الأكبر. لذلك كان تعبير الإجماع في الفقه أساساً من الأسس الأربعة؛ والجماعة في الدين والسياسة لا يستقيم أي منهما بدون الإجماع.

ليس مهما أن الوحدة الكاملة الشاملة لم تتحقق سوى في مرحلة قصيرة من مجمل التاريخ العربي الإسلامي، لكنها تبقى على كل حال مثلاً أعلى يطمح إليه العرب ويسعون إلى تحقيقه في مختلف مراحل التاريخ بدرجات متفاوتة تقترب أو تبتعد من المثل الأعلى. كذلك الإجماع، لا ندري أنه تحقق فعلاً في لحظة من التاريخ لكنه يبقى الآلية التي لا مناص منها للوصول إلى الاستنتاجات الفقهية. إن فهم النصوص القرآنية وتحقيق الأحاديث النبوية وممارسة القياس أمور لا يصل فيها الفقهاء إلى استنتاجات صالحة للإعتبار إلا متى صاحبها إجماع عليها. والإجماع آلية تتحقق تدريجياً بعملية سيرورة تراكمية، نخالها أمراً غير ملموس وبالتالي غير موجود، لكنها عملية حقيقية واقعية. لا ندري إن كان الاجماع تحقق في لحظة من التاريخ لكنه تحقق في مجمل التاريخ. عند النظر إلى تقنيات الإجماع يسهل الاستنتاج أن الإجماع أمر غير واقعي ويسهل إنكاره. كذلك مسألة الوحدة العربية، تقتلها تقنيات البحث والنقاش لكنها تغلف ضمير أكثرية العرب. إن إجماع الجماهير العربية على تأييد وحدة الكويت

والعراق رغم عدم ثقتهم بصدام حسين هو خير دليل على ذلك(*). كذلك التأييد الذي منحه العرب لعبد الناصر، رغم فشله في معظم معاركه، وهو تأييد لم يكن له سبب آخر غير دعوته الوحدوية.

إن مسألة وحدة الأمة بالنسبة للعرب تتعدى وجودهم كأمة. ليست هي مسألة محض قومية. إنها تتعلق بوجودهم في العالم ووجود العالم بالنسبة إليهم. المسألة هنا هي المغزى الكوني بالنسبة للعرب المرتبط برسالتهم إلى العالم؛ هذه الرسالة التي بدأت مع الرسول والتي كانت خاتمةً لتاريخ طويل قبل الرسول. بالنسبة إليهم لا معنى للتاريخ قبل الإسلام، لا معنى للجاهلية، إلا بمقدار ما تقود إلى الإسلام(**)؛ والإسلام أمة؛ والأمة عربية كونية؛ وفي ذلك تناقض. التناقض هو بين الكوني والقومي. على هذا الأساس يمكن القول أن مفهوم الأمة لدى العرب مفهوم غير قومي، والأمة العربية أمة غير قومية، لأن كليهما يحمل معنى التجاوز إلى ما هو أعمّ وأشمل. كلاهما يشكل طموحاً لاحتواء العالم. وما ذلك إلا لأن العرب يحملون الرسالة الإسلامية إلى العالم.

لا زلنا نرى المثقف العربي ينتسب إلى مرحلة واحدة من تاريخه وهي مرحلة الخلفاء الراشدين والفتوحات؛ فكأنه يعلن بذلك تعلقه المستمر حتى الزمن الراهن بالدعوة الكونية التي تعبر عن نفسها بالرسالة الإسلامية. وما زال حديث المغيرة بن شعبة عند رستم قائد الفرس، عشية القادسية يعكس هذا التوجه، حين قال له بما معناه أن المسألة لم تعد مسألة فقرنا وتشردنا في الصحراء، لقد صار لدينا دعوة(***). هذا الأمر الذي عبر عنه ابن خلدون بقوله أن نشوء الدول

(*) إن الاستخفاف بمشاعر الجماهير العربية لدى الغرب والاقتصار على رؤية مسألة العراق - الكويت في إطار عمل غير شرعي يقوم به حاكم جائر شبه مجنون هو أمر يبعث على مزيد من الشكوك لدى العرب بنوايا الغرب، خاصة وأن العرب يرون أن الغرب قد حمى صدام حسين من السقوط مرات في وجه أعدائه.

(**) إن قراءة المطولات التاريخية العربية، الطبري، ابن الأثير، ابن خلدون، التي تبتدىء بفصول طويلة حول التاريخ منذ بدء الخليقة تقود إلى هذا الاستنتاج.

(***) القصة مروية بعدة أشكال عند الطبري، الجزء الثالث.

عند العرب لا يتم عن طريق العصبية وحسب؛ وإنما العرب لا يستطيعون إقامة الدولة إلا بوجود عصبية قوية إضافة إلى الدعوة(*).

ربما بدا هذا القول سخيفاً في زمن لا يستطيع العرب الاتفاق على شيء، وهم غارقون في نزاعات وحروب أهلية محلية. وهذا أمر يعمق لدى العربي الشعور بالتفاهة وانعدام المغزى. قد يبدو هذا القول كمقامر يراهن على كل شيء أو لا شيء. ربما كان انتظار القفزة الضخمة والفجائية إلى الوحدة نوعاً من المغامرة أو المقامرة. لكن ألا يفسر العلماء الآن نشوء العالم بما يسمى القفزة الكبرى (Big Bang)؟ ألا يحدث ذلك في كل مرة يتحول فيها السائل إلى غاز؟

إن أهمية مسألة الوحدة ومغزاها الكوني بالنسبة للعرب هي التي تفسر علاقة عبد الناصر بالجماهير العربية. كانت انطلاقة عبد الناصر الكبرى، بنظر العرب، في مؤتمر باندونغ، تعبيراً عن الخروج من المحلي إلى الكوني. بعدها غفر العرب لعبد الناصر هزائمه، وأعماله الفاشلة. غفروا له لأن خروجه من المحلي إلى الكوني جعلهم يشعرون مرة أخرى بمعنى لوجودهم، وبمغزى له. عبر عبد الناصر عن اتجاهه بنظرية الدوائر الثلاثة (التي كانت الأمة العربية واحدة منها فقط) ومارس هذا الاتجاه بالحياد الإيجابي. وضع نفسه والأمة حيال العالم. لذلك لم يعد مهماً ماذا يفعله على صعيد الحياة اليومية، علماً بأن أخصامه من العرب استخدموا أخطاءه على صعيد الحياة اليومية ضده لكنهم لم يفلحوا في ذلك.

يرتبط تعبير القومية عند الغربيين بالأرض والدولة التي تحتل حيزاً معيناً من الأرض، بينما يرتبط مفهوم الأمة عند العرب بالانتماء الايديولوجي الديني. إن مواطنية العربي لا تنحصر في إطار جغرافي تحتله دولة قطرية لا يعتبرها من صنعه. ولا يستطيع أن يفهم لماذا يحتاج المغربي إلى تأشيرة دخول إلى تونس أو لبنان أو السعودية. خلال التاريخ الماضي قبل نشوء الدول القطرية الراهنة لم يكن هناك حواجز في المواطنية بين مختلف الأقطار العربية والإسلامية، بل كان

(*) مقدمة ابن خلدون.

العبد يشترى من بلاد بعيدة ويتم تلقينه بالإسلام وتدريبه العسكري فيدخل سلك الجندية وربما صار أميراً أو سلطاناً. حتى الغرباء يصيروا مواطنين وربما سلاطين بمجرد انتمائهم الإيديولوجي.

ربما كان منشأ هذا الفرق يعود إلى أن مفهوم الغرب للدولة القومية نشأ في أحضان فيدرالية تعتمد على ملكية الأرض في مرحلة توسعها وانتصارها على العالم، بينما تطرح الدولة العربية «الحديثة» مفهومها في وقت تنهزم الأمة أمام لعالم الخارجي بقيادة اقطاع شرقي لا يصلح إلا للقمع الداخلي ونهب الرعية وممارسة شتى أنواع المظالم والإهانات تجاهها(*).

ما يزال تعبير الأمة لا يتطابق مع «القومية» وما زالت القومية لا تجد طريقها إلى الذهن العربي رغم وجود انتماء وهوية عربيين منذ ما قبل الإسلام. ذلك لأن مفهوم الأمة يتجاوز «القومية العربية» بالمعنى الغربي لكلمة قومية. والدولة القطرية لم تستطع أن تشكل قومية بنظر العربي. أكثر من ذلك، إن تعبير القومية العربية لم يستطع أن يجد تعريفاً محدداً له عند أصحاب الاتجاه القومي العربي. ما زال هذا التعبير يحمل عدداً من الالتباسات لعدم اقتصاره على التعريف الغربي المرتبط بحيّز من الأرض التي تشكل إطاراً لدولة قائمة. إن الالتباسات التي يحملها مفهوم القومية العربية وهي التباسات تتعلق بالإسلام والعروبة، والكونية، ربما كانت التباسات تبعث على نحو صحي سليم يحمي القومية العربية من الوقوع في مطبات الشوفينية والفاشية التي أصيبت بهما القوميات الغربية التي ما تزال تعاني منهما معاناة تدفعها إلى التعامل مع العرب بالطريقة التي نشهدها الآن.

مفهوم الدولة

كان تشكيل دولة إسلامية مؤسسة على دستور في المدينة، حجر الزاوية في

(*) إن كتاب الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والآثار» يشهد بوضوح تام على ممارسات الإقطاع المملوكي الجائرة والمهينة تجاه الرعية، في وقت تخلى فيه هذا الاقطاع عن مهمته الأهم وهي الجهاد ضد الغزو الخارجي (النابليوني ثم الانجليزي). وما زال كتاب الجبرتي يصلح لوصف المرحلة العربية الراهنة.

إطلاق وتوسع الدعوة. منذ البداية كان للدولة بنية ذات هرمية واضحة التراتبية، وإلا لما كان بإمكان هذه الدولة أن تدير من مركز واحد ثابت جميع تلك الفتوحات وتنظم جمع الضرائب وأمور الخراج والعلاقات مع الشعوب المغلوبة(*).

استجابت الدولة الإسلامية لمشاكل العصر في كل مرحلة وتطورت تبعاً لذلك. كان صراع الحزبين اليمني والقيسي أيام الأمويين صراعاً حول طريقة التعامل مع سكان البلدان المفتوحة وأسلوب الفتح. كان ذلك الصراع بين حزبين سياسيين أكثر منه انقساماً بين تجمعات قبلية(**). ثم جاءت الدولة العباسية لينشأ صراع بين العرب والموالي، ولتبدأ عملية انصهار واسعة ينفتح فيها المجال السياسي والاجتماعي لكل الشعوب الداخلة في إطار الدولة الاسلامية. وكان ضعف الخلافة العربية وصعود أمراء الجيوش من غير العرب ثم السلاطين ثم العبيد المماليك على أنقاض الخلافة التي لم يبق منها إلا الرمز الديني المفرغ من أي محتوى سياسي لكن المشبع بالمحتوى الديني والثقافي الذي يترك أثره غير المباشر على السياسة. كان هذا الضعف ذاته أمراً ذا أثر كبير في عملية الانصهار(***).

تطورت بنية الدولة خلال هذه المراحل لتأخذ شكلها الأعلى في دولة المماليك. كانت هذه الدولة مجردة عن العلاقات المحلية لأنها كانت تتشكل من عبيد مستوردين للقيام بمهام محددة بعد أن يتم تلقينهم وتدريبهم(****) ولولا هذه

(*) إن كتاب محمد عابد الجابري المهم حول بنية العقل، ينتهي إلى السقوط في الجزء الثالث الذي يدور حول العقل السياسي العربي حيث لا يرى إلا عقيدة وقبيلة وغنيمة. لا يرى الجابري أن دولة مترامية الأطراف ذات مركز ثابت تختلف عن دولة قبلية يرتحل مركزها مع العشيرة فتنحصر مواردها بالغنائم.

(**) يبرهن على ذلك محمد عبد الغني شعبان في كتابه عن الدولتين الأموية والعباسية.

(***) يصف مونتغمري واط في كتابه Islam and Integration in Society عملية الإنصهار هذه بمداها الثقافي والديني الواسع.

(****) يصف هذه الدولة بشكل كامل القلقشندي في صبح الأعشى الذي كتب في تطور بنية الدولة. ويصف السيرورة التاريخية لهذه الدولة المقريزي في كتاب السلوك. وكلاهما فقيه.

المهام لما استطاع العبيد أن يصبحوا أمراء وسلاطين يتحكمون بالمجتمع(*). إن التقسيمات الإدارية في أيام المماليك، والهرمية الدقيقة المرتبطة بتلك التقسيمات، والأعراف والطقوس المتبعة في كل مناسبة رسمية، وطريقة المكاتبات الرسمية، ونوعية القلم المستخدم لكل مكاتبة، وغير ذلك من الأمور تدل على وجود بنية دقيقة التراتبية للدولة.

لم تستطع دولة المماليك أن تصل إلى ما وصلت إليه، ولم يستطع المماليك أن يحافظوا على بقائهم رغم انتصار العثمانيين عليهم في بداية القرن ١٦ (علماً بأن المماليك بقوا حكاماً محليين حتى القرن ١٩) لولا قيامهم بالمهمة الأساسية المطلوبة من أي حكومة عربية إسلامية، وهي مهمة الجهاد في وجه الأعداء الخارجيين. والمعلوم أن دولة المماليك نشأت في ظروف الجهاد ضد الصليبيين والمغول. وما زلنا في القرن العشرين نرى الحكومات العربية تبرر سياستها الداخلية، القمعية في معظم الأحيان، بمبررات الصراع ضد الأعداء الخارجيين (بالدرجة الأولى إسرائيل ومن يدعمها)، كما رأينا في الخمسينات والستينات الجماهير العربية تصفق لسقوط الليبرالية التي تقاعست في الجهاد ضد الأعداء الخارجيين(**).

انطلاقاً من ذلك، أي من وعي عميق لضرورة ولأهمية الجهاد، صاغ الفقهاء، من الماوردي إلى أبي يعلى إلى ابن جماعة إلى ابن تيمية نظرية في مفهوم وبنية الدولة الإسلامية. ترتكز هذه النظرية على عنصرين أساسيين أولهما الطاعة للحاكم مهما كان جائراً وظالماً وثانيهما مهام الحاكم التي تدور حول الجهاد وحماية البيعة وتحصين الثغور(***)، الخ..

(*) كلمة مولى تحمل معنيين التابع والسيد في آن معاً، كتعبير عن أثر التطور التاريخي في اللغة.

(**) ما زال العرب محكومين بالخيار بين الجهاد من أجل الحرية في وجه الخارج المرتبطة بالقمع في الداخل وبين الديمقراطية المصحوبة بإلغاء فكرتي الجهاد والوحدة؛ ولا يستطيعون الاستفادة من الحريتين معاً. يعبر الجبرتي عن هذا المأزق بكل مرارة في وصفه للمماليك ولمحمد علي باشا الذين يكرههم؛ كما يعبر المثقف العربي الراهن عن مرارته تجاه حكامه بطريقة مشابهة.

(***) هي مهام عشرة يكررها الفقهاء الاسلاميون برتابة في كتاباتهم حول الدولة الاسلامية. راجع ابن جماعة في تحرير الأحكام.

ليس صحيحاً أن الفقهاء دعوا إلى طاعة السلطان عادلاً كان أم جائراً لأنهم كانوا أتباعاً له بل إدراكاً منهم لضرورات تاريخية وظروف موضوعية تفرض نفسها. الماوردي كان يضع برنامجاً لعودة الخلافة ويفاوض السلطان السلجوقي الآتي إلى بغداد باسم السنّة لإزاحة البويهيين الفرس. وأبو يعلى كان حنبلياً يمثل العامة في مواجهة الأمراء والسلاطين، وابن جماعة كان يعزل نفسه من قضاء الشافعية في القاهرة بضع مرات احتجاجاً على تصرفات السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وابن تيمية مات في سجن السلطان.

إن نظرية الفقهاء في مفهوم الإمامة وبنية الدولة تندرج في إطار إشكالية وجود الأمة، التي تحتم على العرب حل هذه الإشكالية وتحقيق وجود الأمة في دولة واحدة قبل البحث في إشكال وجودها. لم يعتبر الفقهاء شكل الدولة مهماً ما دامت الدولة قائمة، لأنه بدون الدولة تكون هناك الفتنة، والفتنة أشد من القتل لأنها تعرض الأمة للهزيمة في وجه العدو الخارجي.

وما زالت هذه الإشكالية تفرض نفسها في القرن العشرين، خاصة في هذا العقد حيث يواجه العالم والعرب بأنظمة دولية وشرعية أليمة تفرض على العرب أن يستسلموا لتجزئة قطرية تلغي وجودهم كأمة واحدة.

صحيح أن الدولة العربية الواحدة لم تكن موجودة سوى لفترة قصيرة من التاريخ العربي الإسلامي. لكنه كان لدى العرب على الدوام دولة قطب تحتل مكاناً مركزياً في وعيهم ويعتبرونها تجسيداً لنزوعهم نحو الوحدة حتى ولو كانت هذه الدولة لا تحتل سوى جزء ضئيل من الأرض العربية. هكذا كانت دولة الحمدانيين رغم صغر مساحتها، ودولة الأيوبيين ثم المماليك ثم السلاجقة ثم العثمانيين. والمراسلات التي يوردها القلقشندي في صبح الأعشى بين الدول الإسلامية الأخرى ودولة المماليك تشير إلى أن هذه الدولة كانت الدولة القطب لدى العرب والمسلمين عامة.

إن ما يحرك العرب ويعبر عن مزاجهم التاريخي هو مفهوم الأمة؛ والأمة موجودة في وعيهم سواء توحدوا أم لم يتوحدوا وسواء وجدت الدولة الواحدة أم

لم توجد. هم يعلمون أن الوحدة ضرورية، وبـدونها يبقى مفهوم الأمـة متحققاً على الصعيد الثقافي وحسب. كما يعلمـون أن الدولـة ضرورية أيضـاً لأنها تنقل وجـود الأمة من الصعيـد الثقـافي إلى الصعيـد السيـاسي؛ فهي الأداة التي تحقق الأمة بها وجوداً فعلياً يساعدها على ممارسة دعوتها التي تخرجها من الحيّـز القومي الضيق إلى مجال أرحب وأوسع هو العالم والكون بأسره.

الأمـة تقود إلى الـوحدة، والـوحدة تقـود إلى الدولـة؛ لكن وجود الأمـة لا يتوقف على تحقق الوحدة أو الـدولة؛ بـل إن وجود الأمـة هو الشرط الضروري لكل ما عداه. والعرب يعتبرون أن تحقيق الوحـدة والدولـة لا بد أن يتم عنـدما تتـوفر القـدرات اللازمـة وهم ينتظرون دائـماً الظروف المنـاسبـة؛ وقـد عـودتهم صحراؤهم (التي وإن تركوها، ما زالوا ينفرون من خشونتهـا وتهديدها الدائمين لحيـاتهم المدينيـة الحضريـة، لكنهـا مـا زالت تعيش في نفـوسهم،) عـلى الصـبر وحسن التعامل حتى مع السراب.